من أعلام المذهب المالكي مشرقا ومغربا
القاضي عبد الوهاب

د. احميدة بن زيطة
جامعة أدرار

ملخص:

القاضي عبد الوهاب فقيه مالكي كبير من زعماء المدرسة العراقية. لقد بذل مجهودا بارزا في تطوير المذهب المالكي ومثلت آراؤه جسرا معتبرا ربط بين فروع المدارس المالكية المختلفة وظل كتابه "التلقين" من أهم الكتب التي تعتمد في التدريس والفتوى في مدارس المذهب المالكي.

وهذا ما سنوضحه من خلال تقديم ترجمة هذا العالم الفذ.

الكلمات المفتاحية: القاضي؛ عبد الوهاب فقيه؛ أعلام المذهب المالكي؛ المذهب المالكي.

Résumé:

Le Qadi Abdelouahab un grand docte célèbre, est considéré parmi les pionniers du rite malikite iraquien.

Il a fait un effort significatif dans le développement du rite malékite, ses points de vue ont représentés un pont d'esprit reliant les différentes branches de l'école Malikite.

Son livre "Et-Talkine" (l'endoctrinement) restait l'un des plus importantes sources et manuels de l'enseignement et Fatwa dans les différentes branches de dogme malikites.

C’est ce que nous voulons le montrer à travers cette biographie.

فإن الكتابة عن المذهب المالكي وأعلامه جديرة بأن تحظى بالاهتمام والقبول، فهو مذهب مميز بخصائص متعددة. ويكفي للإشادة به أن نقول أنه المذهب الذي انتشر في أصقاع المعمورة، بل أصبح وفي حياة مؤسسه المذهب الرسمي للدولة الإسلامية في الأندلس، حينما أخذ الخليفة الأموي هشام بن عبد الرحمان بن معاوية أمير الأندلس جميع الناس بإلزامهم مذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه وذلك في السنوات السبعين بعد المائة من الهجرة[1].

وهذه السمة لم تتحقق لأي مذهب من المذاهب الفقهية الأخرى.

[1] – المعيار المعرب للونشريسي 357/6، 379/11.

وانتشار المذهب في أنحاء المعمورة جاء نتيجة تكوين خلايا مالكية في أنحاء البلاد الإسلامية على يد تلامذة إمام دار الهجرة الذين التزموا أصول مذهبه الاستنباطية الفقهية. وتطورت هذه الخلايا لتصبح بعد ذلك مدارس للمذهب تتميز كل مدرسة بمنهج استنباطي وترجيح فقهي وكتب معتمدة.

ومن هذه المدارس المدرسة العراقية التي ساعدت على ظهورها عوامل البيئة العلمية والفقهية التي اعتمدت على منهج يخالف المناهج المعتمدة في المدارس المالكية الأخرى.

فمنهج هذه المدرسة جاء متأثرا بمنهج أهل الرأي الذي ساد العراق نتيجة انتشار المذهب الحنفي فيه.

وبدأ ظهور المذهب المالكي بالبصرة على يد بعض تلاميذ الإمام مالك كعبد الرحمان بن مهدي وعبد الله بن مسلمة بن قعنب[2].

وبالرغم من أن المدرسة العراقية المالكية هي وليدة مدرسة المدينة، فإنها تميزت عنها في منهجها بالميل والتحليل المنطقي للصور الفقهية والاستدلال الأصولي. وهو المنهج الذي اصطلح المالكية المتأخرون على تسميته بطريقة العراقيين. ويمثلهم في ذلك ثلة من العلماء منهم القاضي إسماعيل والقاضي أبو حسين بن النصار وابن الجلاب والشيخ الأبهري والقاضي عبد الوهاب وكلهم أفذاذ العلماء المالكين العراقيين[3].

وبعد هؤلاء الأفذاذ ضعفت المدرسة العراقية. وأول بوادر هذا الضعف ظهرت حين هاجر القاضي عبد الوهاب بن نصر إلى مصر.

إلا أن ضعف هذه المدرسة لم يحرم آراء هذه المدرسة وترجيحاتها وكتبها من أن تؤدي دورا بارزا في المذهب المالكي من خلال ما قام به أعلامها المميزين كالقاضي عبد الوهاب موضوع هذه الترجمة. فمن هو إذن هذا العالم المبرز؟

اسمه:

هو القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن حسين بن هارون بن أمير العرب مالك بن طوق الثعلبي العراقي، ولد بالعراق سنة 362 هـ وتوفي بمصر سنة 422 هـ، وقبر قريب من قبر ابن القاسم وأشهب في المكان الذي يعرف بمقابر السادة المالكية[4].

شيوخه:

يذكر أنه سمع أبا عبد الله العسكري، وأبا حفص بن شاهين، وأبا بكر الأبهري. وتفقه على كبار أصحاب الأبهري كأبي الحسن بن القصار، وأبي القاسم بن الجلاب. ودرس الفقه والأصول والكلام على القاضي أبي بكر البقلاني وغيره من كبار الفقهاء والمحدثين والأصوليين.

---

[2] – اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، ص 65.

[3] – اصطلاح المذهب عند المالكية، د/محمد إبراهيم أحمد علي، ص 68.

[4] – التلقين في الفقه المالكي للقاضي عبد الوهاب، 11/1.

قال القاضي عياض: «ومن قال أنه لم يسمع من الأبهري غير صحيح بل حدث عنه وأجازه»[5].

تلامذتـه:

أخذ عن القاضي عبد الوهاب تلاميذ كثيرون نذكر منهم:

– عبد الحق بن هارون السهمي الإمام الفقيه الحافظ النظار العالم المتفنن صاحب كتاب النكت وكتاب الفروق لمسائل المدونة.

– محمد بن علي المازري المعروف بالإمام، هو من أفقه علماء المالكية، شرح كتاب مسلم وكتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب حيث شرحه بطريقة مبتكرة يظهر فيها تأثره بطريقة العراقيين.

– أبو بكر الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد.

– محمد بن عبد الله بن عمروس البزاز والذي انتهت إليه الفتوى ببغداد.

– أبو الفضل مسلم بن علي الدمشقي المعروف بغلام عبد الوهاب.

– أبو العباس أحمد بن منصور الدمشقي.

بالإضافة إلى كثير من أهل الأندلس[6].

مصنفاتـه:

لقد ألف القاضي عبد الوهاب كثيرا من الكتب نذكر منها:

– شرح كتابين من مؤلفات ابن أبي زيد. هما الرسالة والمختصر الذي سماه الممهد في شرح مختصر أبي محمد. وكان ذلك سببا في نيله إعجاب القيروانيين الذين رأوا في ذلك اهتماما بكتب عميد مدرستهم الإمام ابن أبي زيد.

– كتاب شرح المدونة ولم يتمه.

– وفي علم الأصول ألف كتاب الإفادة وكتاب التلخيص.

– وفي الفقه ألف كتاب عيون المسائل وكتاب أوائل الأدلة في مسائل الخلاف، والإشراف على مسائل الخلاف، والفروق في مسائل الفقه.

– وكتاب الأدلة في مسائل الخلاف للرد على الإمام الموزني الشافعي.

– كما ألف في المذهب كتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة. والمعونة لمذهب عالم المدينة[7].

وأهم الكتب التي اعتمدت واعتبرت وارتبط اسمها باسم القاضي عبد الوهاب هو كتاب التلقين والذي شرع في شرحه أيضا ولكنه لم يتمه.

---

[5] – ترتيب المدارك للقاضي عياض، 272/2.

[6] – التلقين في الفقه المالكي للقاضي عبد الوهاب، ص 12.

[7] – الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، 23/2.

وقال عنه ابن خلكان «صنف القاضي عبد الوهاب كتاب التلقين وهو ما صغر حجمه من خيار الكتب وأكثرها فائدة»[8].

ولقد اهتم العلماء بكتاب التلقين حتى أنه كان موضوع شرح من طرف بعض العلماء لما رأوا فيه أنه من الكتب التي يدور عليها مذهب الإمام مالك. ومن أسماء هؤلاء الفحول نذكر:

– عبد العزيز بن إبراهيم المشهور بابن بزيزة الذي سمى شرحه "روضة المستبين شرح التلقين".

– محمد بن علي المازري الذي يأتي شرحه ليربط بين المدرسة العراقية والقيروان ربطا يتميز بتقديم آراء المدرستين على نهج المدرسة العراقية المالكية[9].

– داود بن عمر بن إبراهيم الإسكندري.

– وأما ابن المناصف محمد بن عيسى الأزدي ينسب إليه أنه أكمل ما أغفله القاضي عبد الوهاب في التلقين من الأحكام والشروط في فصل السلم[10].

– شهاب الدين أحمد القرافي صاحب الذخيرة نسخة الشرح موجودة بالخزانة العامة بالرباط[11].

ثناء العلماء على القاضي عبد الوهاب وكتابه التلقين:

إن المحلل لأقوال العلماء في شخص القاضي عبد الوهاب وما امتازت به كتبه لاسيما التلقين يتصور مكانة هذا العالم ودوره في خدمة المذهب المالكي وفي مدارسه المختلفة.

وحتى نعطي صورة واقعية لما نقول نذكر نماذج من هذه الأقوال.

– قال بن فرحون: «القاضي أبو محمد أحد أئمة المذهب كان حسن النظر نظارا للمذهب ثقة حجة نسيج وحده وفريد عصره»[12].

– قال الخطيب البغدادي: «كان عند الوهاب ثقة لم ألق من المالكيين أحدا أفقه منه. كان حسن النظر جيد العبارة. تولى القضاء بالعراق قبل رحيله إلى مصر».

– قال ابن حزم: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي إلا عبد الوهاب والباجي لكفاهم».

– وقال شيخه أبو بكر الباقلاني: «لو اجتمع في مدرستي القاضي عبد الوهاب وأبو عمران الفاسي لاجتمع علم مالك، أبو عمران يحفظه وعبد الوهاب ينصره».

---

[8] – فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، 419/2.

[9] – اصطلاح المذهب، ص363.

[10] – اصطلاح المذهب، ص 348.

[11] – التلقين، ص20.

[12] – الديباج، 22/2.

وجاء في كتب المذهب: «لولا الشيخان والمحمدان والقاضيان لذهب المذهب المالكي. ويراد بالشيخين ابن أبي زيد القيرواني، وأبي بكر الأبهري. ويريد بالمحمدين محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، ويريد بالقاضيين عبد الوهاب وابن القصار»[13].

ونقل ابن فرحون عن ابن بسام أنه قال: «كان القاضي عبد الوهاب بقية الناس ولسان أصحاب القياس، ونبت به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها وعلى حكم الأيام في محسني أهلها فودع ماءها وظلها ثم توجه إلى مصر فحمل لواءها وملأ أرضها وسماءها واستتبع سادتها وكبراءها وتناهت إليه الغرائب وانتلت في يده الرغائب وتولى قضاء المالكيين من آخر عمره وبها مات قاضيا»[14].

وأما الإشادة بكتب القاضي ولاسيما كتابه التلقين فنستفيدها من الآراء التالية:

لقد اهتم علماء المالكية بكتب القاضي عبد الوهاب لتميزها ببعض الخصائص منها:

– أن كتبه تمثل ذروة التطور في آراء علماء المالكية في العراق، لأن القاضي يعتبر وبلا منازع وارث لعلم وآراء أبي بكر الأبهري وابن الجلاب وأبي الحسن القصار.

– أن كتبه تمثل الاندماج بين آراء المدرسة العراقية التي يمثلها وآراء المدرسة المغربية التي يمثلها مالك الصغير (ابن أبي زيد القيرواني)، ويتمثل ذلك في شرحه الرسالة وشرحه للمختصر كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

– اعتبار كتاب التلقين أحد الكتب التي عكف عليها المالكيون شرقا وغربا[15].

– الاحتكام إلى كتبه في الخلاف بين الباجي وعلماء الشام.

– تقدير العلماء القيروانيين لكتب القاضي عبد الوهاب ومن مظاهر ذلك التقدير والعرفان نقلهم من كتبه والاستدلال بتوجيهاته والأخذ بترجيحاته.

– لقد كان للقاضي عبد الوهاب تأثير بارز على المدرسة الأندلسية المتمثلة في زعيمها أبي الوليد الباجي وكتابه المنتقى حيث كثيرا ما ترد على صفحاته آراء للقاضي عبد الوهاب المستفادة من كتبه التلقين والإشراف والمعونة وشرح الرسالة. وقد يصل الأمر بالباجي إلى أن يرجح آراء القاضي كما هو الشأن في كتابه المنتقى[16].

وهكذا نالت مؤلفات القاضي عبد الوهاب شهرة عند المغاربة بعد المشارقة خصوصا بعد أن اتسمت آراؤه بتبنيها لمبادئ وقواعد الترجيح القيروانية والمصرية[17].

---

[13] – التلقين، 24.

[14] – الديباج، 22/2.

[15] – الذخيرة، 34/1.

[16] – المنتقى ج1، ص23 –41–197.

[17] – اصطلاح المذهب 271.

القاضي عبد الوهاب الشاعر:

يعد القاضي عبد الوهاب من الشعراء الكبار حيث ترك آثارا أدبية معتبرة أوردها أصحاب التراجم.

ولقد جاء في الديباج لابن فرحون أن للقاضي عبد الوهاب شعرا معانيه أجلى من الصبح وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح.

ونظرا لكثرة مروياته نستشهد بالأبيات التالية:

من قصيدته عند خروجه من بغداد قال:

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وإني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

فكانت كخل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتجانف[18]

وفي قصيدة أخرى قال:

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا

ونلت من الزمان ونال مني فكان مناله حلوا ومرا

أطعت مطامعي فاستعبدتني فلو أني قنعت لكنت حرا[19]

وفي مدحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني نذكر الأبيات التالية:

رسالة علم صاغها العلم النهد قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد

أصول أضاءت بالهدى فكأنما بدا لعيون الناظرين بها الرشد

وفي صدرها علم الديانة واضح وآداب خير الخلق ليس لها ند[20]

وفي قصيدة نصح قال:

لا تطلبن إلى المجبوب أولادا ولا السراب لتسقي منه ورّادا

ومن يرم من الأنذال مكرمة كمن يوتّد في الإتيان أوتادا[21]

---

[18] – فوات الوفيات، 419/2.

[19] – الديباج 23/2.

[20] – التلقين، 22.

[21] – ترتيب المدارك ج2، ص273.

الخاتمة:

وأخيرا ومن خلال هذه الومضات نخلص إلى أن القاضي عبد الوهاب عالم فقيه وأديب حكيم كان من أفقه علماء المالكية. ألف تآليف مفيدة في فنون العلم.

وبالرغم من أنه من رجال المدرسة العراقية المالكية، فإنه استطاع أن يؤثر في باقي المدارس المالكية الأخرى، ولاسيما المصرية والمغربية بآرائه وكتبه التي اعتمدت في المذهب وعدت من مصادره الأساسية.

فآراؤه مثلت الجسر الذي ربط بين فروع المدارس المالكية المختلفة الأمر الذي جعلها تحظى بالتقدير والعرفان لدى علماء هذه المدارس.

وظل كتابه "التلقين" من أمهات الكتب التي تعتمد في التدريس والفتوى. ويكفي مؤلفه فخرا أنه يتداول بين علماء المالكية قولهم: «توضأ بالرسالة، وصل بالجلاب وصم بالتلقين وزكِّ بابن الحاجب وحج بخليل واقض بالمدونة»[22].

[22] – اصطلاح المذهب، ص 595.

قائمة المراجع:

- المعيار المعرب لأحمد بن يحيى الونشريسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981.
- اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، دبي، ط1، سنة 2000م.
- التلقين في الفقه المالكي للقاضي عبد الوهاب البغدادي، تحقيق ودراسة محمد ثالث سعيد الغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة 2005.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي، تحقيق وتعليق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 2005.
- فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- الذخيرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الطبعة الثانية، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة 1982.
- المنتقى شرح موطأ الإمام مالك للإمام الباجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، سنة 1331 هـ.